

من وثائق "إلى الأمام" المرحلة الثانية: 1980 - 1994 الخط التحريفي الطور الثاني: 1985 - 1994

تأملات نظرية *

تأسست منظمة "إلى الأمام" قبل 23 سنة كمنظمة ماركسية لينينية مغربية. في سياق تلك الفترة، كان تبني هذه الإيديولوجية بهذه التسمية المحددة، وبالأخص في العالم العربي، يعني التميز عن إيديولوجية الأحزاب الشيوعية العربية التي كانت في أغلبيتها غارقة في الإصلاحية (وكان لنا في

الهوامش المرقمة 1، 2 و 3 هي ضمنية للنص، أما هذا الهامش (*) فهو من وضع موقع 30 غشت :
* صدر هذا المقال "تأملات نظرية"، لأول مرة باللغة الفرنسية في مجلة "إلى الأمام" بالفرنسية، عدد رقم 7، باريس، شتنبر 1993. وقد قامت جريدة "الأفق" بإعادة نشره مترجما إلى اللغة العربية، وذلك في العدد 47، السنة الثالثة، من 29 يناير إلى 15 فبراير 1994.

يكتسي المقال أهمية أساسية في تاريخ الحركة التحريفية الجديدة بالمغرب، فمن خلالها هاجم منظر التحريفية الجديدة الرئيسي أبراهام السرفاتي، المفهوم اللينيني للحزب الثوري، محملا إياه سبب فشل تجارب بناء الاشتراكية في القرن العشرين، بل ذهب بعيدا في هجومه حد اعتبار الحزب اللينيني مولدا للتوتاليتارية، ويقول في هذا الصدد : "بل أفضح من ذلك، بحيث اتضح أن هذه الثورة (يعني الثورة البلشفية) تحولت خلال العشرينات إلى نقيضها، مولدة وجها من الوجوه البشعة للتوتاليتارية التي أدمت قرننا الحالي، في هذه الشروط يلزم علينا أن نراجع ما كان يظهر كأدوات ل "نجاح" هذه الثورة، وأساسا، مفهوم "الحزب الثوري" .

هكذا، وبعد تحميل اللينينية مسؤولية السقوط "المدوي" للاشتراكية، وتجريم المرحلة الستالينية، هاجم منظر التحريفية الجديدة المشروع التاريخي للطبقة العاملة، من خلال ما أسماه ب "أسطورة المهمة التاريخية للبروليتاريا"، ويقول في هذا الصدد :

"إن تاريخ هذا القرن يبين أنه لا يمكن لأي تنظيم أن يدعي قدرته على التعبير عن كل هذا، ليس بمقدور أي تنظيم لوحد أن يقوم بتنسيق جميع هذه النضالات (والمقصود هنا تعددية نضالات المجتمع المدني). إن موضوع، أو بالأحرى أسطورة "المهمة التاريخية للبروليتاريا"، تتضمن هذا الادعاء، وهو ما أدى إلى الكارثة التي حصلت في الاتحاد السوفياتي في السابق" .

ويكتسي هذا النص أهمية، لكونه من أوائل نصوص أبراهام السرفاتي، التي يتحدث فيها عن بديله للحزب اللينيني، المسمى "الأنوية الثورية" .

إن مفهوم الأنوية الثورية، كما يعترف بذلك أبراهام السرفاتي نفسه، هو مفهوم تروتسكي قام بصياغته التروتسكي بيير هاردوان، في مقالة له تحت عنوان "ما العمل بالماركسية"، وقد صدر في مجلة "نقد شيوعي"، صيف 1993. ودون الدخول في تعرية جدور وأسس هذه المواقف السرفاتية، ندعو القارئ إلى الرجوع إلى الدراسة الصادرة بموقع "30 غشت" تحت عنوان "مسلسل تصفية المنظمة الماركسية - اللينينية المغربية "إلى الأمام" ...".

المغرب مثال صارخ) وفي الذيلية للاتحاد السوفياتي، الذي يتم تقديمه كحليف موثوق و وفي للشعوب العربية على حد تعبير علي يعته، الذي كان دعمه لمشروع روجرز الهادف إلى تصفية المقاومة الفلسطينية، يؤكد ذلك.

لقد كانت تعني الماركسية اللينينية بالنسبة لنا، نحن المناضلون المغاربة استعادة الجوهر الثوري للماركسية، هذا الجوهر نفسه الذي تمكن لينين من إنعاشه، في سياق بداية هذا القرن بأوربا، في مواجهة التشويشات الإصلاحية والشوفينية - كما برز ذلك في غشت 1914 - السائدة في الأممية الثانية.

هذا هو ما فعلته قبلنا في العالم العربي، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وأيضا الحركة الثورية بجنوب اليمن، التي أخذت السلطة بهذا البلد سنة 1969، لتصبح فيما بعد، الحزب الاشتراكي اليمني.

23 سنة بعد ذلك، أعتقد أننا كنا على صواب تام في فعلنا هذا. فقد عرفت منظمة "إلى الأمام" طوال السبعينات و الثمانينات أن تعطي المثال، وغالبا لوحدها كتنظيم سياسي مغربي، على الصمود دون أدنى مساومة مع الحكم المخزني ولأبشع أشكال القمع، كما الشأن أمام تأجج الشوفينية وأحط التواطؤات مع هذا الحكم التي طبعت جزءا من تلك السنوات. إن "إلى الأمام" تظل اليوم وفية لهذا المكسب النضالي.

ولا يمكن لنا أن ننسى، بغض النظر عن أخطائنا، ما نحن مدينين به لهذا الجوهر الثوري للماركسية، هذا الجوهر الذي لخصه ماركس كالتالي:

"في مظهرها العقلاني تشكل (الديالكتيك) فضيحة وفضاعة بالنسبة للطبقات السائدة ومنظريها العقائديين، لكونها في تصورهما الإيجابي للأشياء القائمة، تتضمن بذات الوقت إدراك نقيضها المحتوم، أي زوالها الصروري، ذلك لكونها (أي الديالكتيك) بتمكنها من الحركة نفسها، التي لايمثل أي شكل قد تتخذه سوى مظهرها انتقاليا، لاشيئ يمكن أن يفرض عليها لكونها (الديالكتيك) في الجوهر نقدية وثرورية (ملحق الطبعة الثانية الألمانية للرأسمال).

مسألة الحزب الثوري

منذ الشهور الأولى لحياتي النضالية، في السن الثامنة عشرة، تكونت على أساس مفهوم الحزب، و إذا كنت في الستينيات قد أعدت النظر تدريجيا في هذا المفهوم بالنسبة للحزب الملموس الذي

كنت أنتمي إليه ، كما بالنسبة للحزب " الوصي " (الحزب السوفياتي) المرتبط به، فإنني لم أعد النظر إلا جزئيا في مبدأ حزب قائد للثورة.

إن ما يطبع هذا القرن العشرين، هي ثورة أكتوبر، لم يتم بعد القيام بتقييم حصيلة هذه الثورة ، لكن الصورة السائدة لدى أجيال من المناضلين في العالم ظلت، وإلى حدود الانهيار النهائي، هي صورة أول ثورة اشتراكية عمالية ناجحة، وهذا بفضل قيادة الحزب الثوري المركزي المنظم على المنهج المسمى "لينيني"، والمسرح بعقيدة معروفة بكونها علمية، وهي الماركسية-اللينينية. بعد ثلاثة أرباع قرن، جاء الانهيار شاملا، حيث تشتت كونفدرالية الشعوب الحرة والتمساوية والتي تصورها لينين، وانقسمت إلى قوميات بنفس عدد تلك الشعوب، وأصبحت الدول التي تولدت عنها فريسة ما فيات منبثقة من البيروقراطيات السابقة ، وتبعثرت المكتسبات الاجتماعية والثقافية ، وانفتحت هوة سحيقة وسط سدس العالم ، هذا الذي مثل طويلا أمل مضطهدي العالم أجمع. بل أفضح من ذلك، بحيث، اتضح أن هذه الثورة ، تحولت خلال العشرينيات إلى نقيضها مولدة وجها من الوجوه البشعة للتوليتاليتارية التي أدمت قرننا الحالي. في هذه الشروط، يلزم علينا أن نراجع ما كان يظهر كأدوات لنجاح هذه الثورة، وأساسا مفهوم "الحزب الثوري".

سأعود لتناول مسألة "العقيدة"، كما تم تكليلها في ثنائية "الماركسية-اللينينية" ، رغم أن منظمة "إلى الأمام"، عرفت جزئيا كيف تنجو من ذلك ، وتتمسك أكثر في ممارستها وتفكيرها بالجواهر الحي للماركسية.

غير أنني، أود أن أطرح منذ الآن تصوري، في الشروط الملموسة للثورة المغربية في مرحلتها (étape) الراهنة لمسألة التنظيم الثوري (أو بالأحرى التنظيمات الثورية). إنما يميز الطور (phase) الراهن للصراع بالمغرب (يشكل طور جزءا من مرحلة، إن المرور إلى طور أعلى يتميز بانعطاف inflexion دون قطيعة، بينما تتميز المرحلة بالقطيعة) هو ازدهار تنظيمات متعددة داخل المجتمع المدني المحدد أساسا (surdéterminé) بالصراع من أجل ديموقراطية حقيقية وزوال نظام السلطة المخزنية.

من الواضح ، أن التصور الكلاسيكي ل"الحزب اللينيني" الذي سيقود هذا النضال ، عبر الهيمنة على هذه التنظيمات المختلفة ، هو في تعارض مع حيوية اجتماعية من هذا القبيل. أكيد أن النموذج الذي يستوحيه حزب الطليعة يندرج ضمن هذا التصور الكلاسيكي، لكن ، ودون التقليل من مساهمة هذا الأخير في النضال، فإن هذا التصور يتطور بالضبط لكونه متعدد، وأعتقد أيضا

بأن أحد الأسباب الهيكلية لتعثر منظمة "إلى الأمام" تنظيميا، هو كونها لم تستطع تجاوز التناقض الحاصل بين تبنيها لعقيدة رسميا "لينينية"، وبين ممارسة ترتكز على التنظيم الذاتي للجماهير ولاشك، أن السؤال الذي يمكن طرحه في هذا السياق، هو لماذا تنظيم ثوري؟ أجيب شخصيا بأن الحاجة، في ظل دينامية اجتماعية مثل هاته، ليست إلى تنظيم ثوري، وإنما إلى أنوية ثورية. لكن ماذا يعني أولا مصطلح "ثوري" ولماذا "أنوية"؟ إن صياغة هذا الطور الراهن للنضال تسمح، ولعدم دقتها المفاهيمية بالضبط، بالجواب على هذا السؤال.

نقول، ويقول كل المناضلين الديموقراطيين و التقدميين المغاربة "ديموقراطية حقيقية"، في الحقيقة تتحدد هذه الديموقراطية أكثر بالسلب أي نهاية نظام السلطة المخزني، لكن بماذا يتعلق الأمر بعد ذلك؟ ما هي "الديموقراطية الحقيقية"؟ بإمكان جميع المناضلين تبني شعار سيادة الشعب، لكن كيف تمارس بالملمس؟ وحتى اصطلاح "فصل السلط" عندما يستعمل كشعار مركزي يفسح المجال أمام مساومة مفتعلة مع الحكم المخزني: احتفظوا بالسلطة التنفيذية لكن اتركوا لنا التشريعية، هذا دون حتى الإشارة إلى السلطة القضائية، بل حتى شعار المجلس التأسيسي، الذي هو أكثر بكثير جذرية وانسجاما من سابقه، غير خال من الغموضات والاحتواءات الكامنة. ليس فقط، حول مسألة من سيستدعي وسينظم انتخاب مثل هذا المجلس، إذا ظل المخزن قائما؟ ولكن، أيضا لكون هذا الشعار (المجلس التأسيسي)، يظل حبيس حدود الديموقراطية التمثيلية (البرلمانية) التي حللها ماركس منذ أولى كتاباته، وهي الحدود التي بدت أكثر خطورة في العالم الثالث التي لا تتوفر على تشكل طويل للمجتمع المدني، كما شأن أوروبا الغربية، مهد هذه الديموقراطية. لذلك فإن مفهوم مؤتمر الشعب التأسيسي، المرتكز على الديموقراطية المباشرة¹، هو أكثر انفتاحا على دينامية اجتماعية ثورية، تشق الطريق لمسلسل إزاحة سلطة المخزن من طرف الشعب، لكن إلى أين؟ لايمكن أن يحدد ذلك سوى هذا المؤتمر (مؤتمر الشعب التأسيسي)، لكن هنا تبرز من جديد كل المعضلة بين الفوضوية والماركسية، ولا أدعي هنا بأني سأحلها في بضعة سطور، يجب علينا أن نرفض نهائيا كل حتمية تاريخية قابلة للتحديد "علميا"، لكن هل بإمكاننا التأكيد مع ذلك بأن الحقيقة تنبع مجردة من أعماق "الجماهير" دون التمييز فيما بينها؟ وقبل كل شيء، أية حقائق تلك؟ أي حقائق الطبقات الاجتماعية المضطهدة؟

1. فشل التجارب الاشتراكية ل"الديموقراطية المباشرة"، يقود المفكرين الواعين بحدود الديموقراطية التمثيلية، ليعمقوا فيما يتعلق بالديموقراطيات العصرية، مفاهيم الديموقراطية "المستمرة" (د. روسو) و التشاركية (participative) (ت. أندرياني) أو التداولية (ج. هيرماس). في الحالة المطروحة، قد يتعلق الأمر بتوسيع نموذج الديموقراطية التداولية إلى بناء الديموقراطية في بلد من العالم الثالث.

حقائق النساء التي ليست أقل اضطهادا ؟ حقائق الاثنيات المكبوتة" ؟ حقائق الشباب التواق إلى الحياة؟ أم حقائق الأفراد الذين يطمحون بكل بساطة للحرية؟

كل هذا في آن واحد

إن تاريخ هذا القرن يبين أنه لا يمكن لأي تنظيم أن يدعي قدرته على التعبير عن كل هذا. ليس بمقدور أي تنظيم لوحده أن يقوم بتنسيق جميع هذه النضالات. إن موضوع، أو بالأحرى أسطورة "المهمة التاريخية" للبروليتاريا تتضمن هذا الادعاء، وهو ما أدى إلى الكارثة التي حصلت في الاتحاد السوفياتي في السابق. لا بد لكل هذه التطلعات، أن تتمكن من التعبير عن نفسها، وتنظيم ذاتها، في تنوعها وتعددتها، بل أكثر من هذا ألا يمكن لأي واحدة منها أن تعبر عن ذاتها بشكل أحادي، ولا يمكن لأي مجموعة أن تدعي لوحدها تمثيل طبقة من الطبقات، أو شريحة من البشر. إن ازدهار تنظيمات عدة في المجتمع المدني وحده القادر على الجواب على هذه التعددية والتنوع، والتقاءها في مرحلة عليا، يمكن أن تتبلور في مؤتمر الشعب التأسيسي. لكن في نفس الوقت، في قلب هذه الدينامية الاجتماعية، في قلب هذا الازدهار، المطلوب من المناضلين الأكثر نشاطا وخبرة وتجربة، أن يؤسسوا "أنوية ثورية"، عندما يدرجون النضال من أجل تحقيق هذه الطموحات ضمن البحث عن مشروع مجتمعي سياسي قابل للحياة، وذو مصداقية، ويثور رأسا على عقب الوضع القائم.

إن هذا البحث، - حيث الديالكتيك المادية جد نافعة - هو الذي يؤسس الاقتراحات التي تسمح بتعميق أزمة النظام مميزا بذلك الثوريين عن الإصلاحيين الذين يرمون في نهاية المطاف إلى تثبيته². ليس بإمكان أية نواة من هاته الأنوية أن تهيب مثل هذا المشروع، بل أكثر من ذلك، لا يمكن لمشروع من من هذا النوع أن يتشكل إلا في خضم الحوار الديمقراطي المفتوح والواسع، وفوق هذا الحوار، من خلال الإبداع الاجتماعي لهاته الجماهير نفسها. لكن هاته الأنوية، وهاته الجماهير سترتبط في المستقبل³ بعلاقة ديالكتيكية في خضم اغتناء متعدد الجوانب لتلك الأنوية، في علاقة بعضها البعض، وجميعها مغمورة بعلاقاتها مع هذه الجماهير تغتني منها وتغنيها.

2. انظر المقال الهام لبيري هاردوان الصادر في المجلة الجيدة (critique communiste) (صيف 1993)، المعنونة "ما العمل بالماركسية".

3. إن هذا المستقبل، هو مستقبل حاضر، توجد بذوره الكامنة منذ الآن في الممارسة الحالية للنضالات في المغرب.